أتاتـــورك

للأستاذ محمود غنيم

طاف الحمام بعاهل الأتراك
صبراً « فروق » قد احتسبت فتاك
مامات فرد يوم ووري بل هوى من أفقه فلك من الأفلاك
ساد القضاء النسر وهو محلق واها لنسر عالق بشراك

مات مصطفى كمال ، وليس عجيباً أن يموت في هذه السن الباكرة، إنما العجيب أن يمتد به الأجل فوق ذلك! إن ثمانية وخمسين ربيعاً عمر قصير إذا أضيفت إلى رجل من عامة الرجال ، أما إذا أضيفت إلى عاهل الترك فانها بمثابة قرون وأجيال . لو كان هذا الرأس من ماس لذاب ؛ ولو أن تلك الأعصاب من حديد لاعتراها البلى ؛ ولو أن هذا الجسم قلة من قلل الجبال ، لأسلمه العمل المضني إلى الانحلال .

مات مصطفى ، وأسدل الستار على ذلك الوجه الذي قدت عضلاته من الجرانيت ، وانطفأت هاتان العينان بل الكوتان اللتان تشعان السحر والمغناطيس ، وتنفذان إلى أعماق القلوب ، وتنمان عن إرادة من فولاذ .

مات الرجل الذي كان معبود قوم ، وقذى في عيون آخرين .

مات الثائر الذي حكم القضاء الجائر باعدامه ، فلم يصبه سهم من سهامه . مات الذي طالما نصبت المؤتمرات شركاً لاغتياله ، فلم يقع في حباله . مات الذي ناهض السلطان ، ودوخ اليونان ، وحارب الحلفاء في صف الألمان ، فلم يجد الموت إليه سبيلا ، كأنما هو في حصن من الموت والموت وسنان .

مات مصطفى ميتة ابن الوليد على فراشه ، لم يقطع شلو من اشلائه ، ولم تسل قطرة من دمائه ، فلا نامت أعين الجبناء !

كانت أمة محاولة شتى ، مفككة الأوصال ، أنهكها من الداخل استبداد الخلفاء ، ومن الخارج انتصار الحلفاء ؛ غربية في أوربة بدينها وعاداتها ، لا هي من الشرق ولا هي من الغرب ، فجمع مصطفى تلك الأشلاء المتناثرة ، ووامم بين هذه الأطراف المتنافرة، حتى استقام له شبه هيكل من العظام ، كساه لحما ، وركب له أعصابا ، وشق فيه حواس ، ثم نفخ فيه من روحه ، فاذا هو بشر سوى ، مقطوع الماضي عن الحاضر ، لا يمت أوله إلى آخره بآصرة من الأواصر ، فلا غرو إذا قلنا : إن مصطفى كمال ، طراز وحده في الرجال . وإننا لنجور عليه وعلى الحق معه إذا قارناه بموسوليني في الجنوب أو بهتلر في الشمال ، فان المعجزة إنما هي في إحياء الميت ، أما إحياء الحي فليس من المعجزات في شيء . فان كان هناك فقيد يستحق التخليد ، تضاف إلى اسمه البلدان ، وتقام له التماثيل في كل مكان ، فهذا هو مصطفى كمال ، لا غيره من أشباه الرجال الذين تنحت لهم التماثيل من الصخر ، وكان جديرا بها أن تصاغ من الشمع ، ثم تسلط عليها أشعة الشمس

لم يكن الأثر الذي أحدثه مصطفى كمال قاصرا على رقعة من الأرض ، ولكنه غير اتجاهات الأفكار ، وامتد إلى النظم التي تواضع عليها البشر ، فقلبها رأسا على عقب . إنه لم يؤمن بسنة التطور في إنهاض الأمم ، ولم يعترف للزمان بعمل في تكوين الشعوب ، بل قال بالطفرة ، ثم شفع القول بالعمل ، فدفع بأمته من خلف ، في قسوة وعنف ، ثم سار وأوغل في سيره ، والناس في شك من أمره . ولشد ما شده العالم حين رآه يجتاز السبيل ، ويتخطى العقابيل ، بالغاً بأمته حيث يريد في سلام واطمئنان ، والزمان ينظر إليه في خجل ، لأنه أسقطه من حسابه ولم يعترف له بعمل

كان مصطفى مثالاً حياً للرجل الثائر ، أظلته الثورة من مهده إلى لحده ، ما حمل على رأي إلا جرّحه ، ولا سيم خطة إلا فندها ، ولا حارب تحت لواء قائد من القواد، إلا وجه إليه سهم الانتقاد . ثار في طفولته على فلح الأرض ورعي الأغنام ، وثار في شبابه على عبد الحميد ثم على وحيد ، وثار في كهولته على العادات والتقاليد . وليست عظمة الرجل في أن يثور ، فان الثائرين في الرجال كثير ، وما أيسر الانتقاد ، وأسهل الهدم على من أراد ! ولكن مصطفى لم يكن هادماً فحسب ، بل كان هادماً بانياً ، يبني الجديد على أطلال القديم ، ولا يعمل المعول حتى يضع التصميم

أراد مصطفى استقلال بلاده فلم يلجأ إلى الكلام ، إلا بمقدار ما يمهد الكلام للحسام ، ولم يلجأ إلى الاستجداء ، لعلمه أن الاستقلال أخذ لاعطاء ، ولكنه أسمع الغاصب المحتل صوت

احتجاجه عن طريق المدافع المدوية ، والسيوف المقصمة ، فكان صوتاً يخترق حجاب السمع ، وكان أذاناً يطرق الصم من الآذان. وما كان لمصطفى بفلول جيوشه الحديثة العهد بالانهزام أن يطرد المحتلين ، وأن يكبح جماح الجيران الطامعين ، ولكنها العقيدة المتغلغلة فى الصميم ، إذا اقترنت بالحق للصراح ، والرغبة المدججة بالسلاح ، لم يقف فى طريقها شىء ، بل اجتاحت هى كل شىء ، ولم تذر من شىء أتت عليه إلا صيرته كالرميم

وهكذا استطاع مصطفى أن يخلص الأوطان ، من احتلال الناصب وجشع اليونان ؛ ولكن ماذا يفيد جلاء الغاصبين ، والبلاد واقعة تحت نير السلاطين باسم الدين ؟

على رسلك يا مصطفى ، إن طريق الدين شائك وعر المسالك فلا تجرح فيه عواطف الأتراك ، بل عواطف المسلمين أجمعين . إياك والتعرض للخلفاء ، فان للخليفة قوة أربعين من الأولياء . إن المسلمين لا بد لهم من إمام ، وإن الخلافة ركن من أركان الاسلام . بمثل هذا تعالت الأصوات ، من مختلف الجهات ، ولكن لمصطفى أذناً صماء ، لا تصيخ إلى النداء . هو لا يريد الخلافة ، فليكن ما يريد ، ثم يضرب الضربة القاصمة ، فيطوح بالخليفة فى مجاهل الأرض ، وتتطاير شظايا عرشه فى الفضاء . أما الفقهاء فلهم أن يبدوا ما يحلو لهم من الآراء ، وأما الصحف والكتاب ، فلهم أن يحكموا لهل أخطأ أو أصاب

ترى ماذا كان يكون من أمر الخلافة لو طرحها كمال على بساط البحث ، وانتظر فيها قرار المتضلعين من رجال الدين ؟ أغلب الظن أنها كانت تسلك الأدوار التى سلكتها من قبل مسألة خلق القرآن فى عهد بنى العباس ، تتناطح حولها الحجج ، وتتقارع البراهين ، ثم ينتقل التناطح من الحجج إلى الرءوس ، والتقارع من البراهين إلى السيوف والتروس ، ثم لا ينتهى الأمر ، أو ينتهى إلى لاشىء ؛ ولكن مصطفى يعرف ذلك ، ويعرف بجانب ذلك أن منطق الواقع يغير وجوه الرأى ، ويحول اتجاهات الأذهان ، ويحمل على التسليم والاذعان . وكأنى به جالسا على أحجر من الجمر ، وأعضاء المجلس الوطنى يتداولون الآراء فى مسألة الخلافة ، حتى إذا نشب الجدل وطال النقاش ساعة من نهار ، لوح لهم بحبل المشنقة فصدر القرار

ليت شعرى ما ذا فعل مصطفى ؟ أتراه افتات على عروش الخلفاء ، أم أجهز على جريح لا يرجى له الشفاء ؟ أهى نزعة من نزعات الالحاد ، أم التخلص من عضو دب إليه الفساد ؟ للتاريخ وحده أن يحكم ؛ غير أنى أبرئ من الالحاد مترجم القرآن ، ومعز دين الاسلام ، ومرغم الأجانب على احترام الجمعات ، وإنما هو النفوذ الدينى أسىء استعماله ، فوجب استئصاله ؛ ذلك النفوذ الذى تتغلغل فى كل مصلحة ، واعترض طريق كل إصلاح ، والذى لم يوسم بوسم عصر دون عصر ، أو يسلم من شره مصر دون مصر . ذلك الذى جعل مصطفى يرمأ برجال الدين لا بالدين ، حتى إنه ليقول فى فورة من فوراته النفسية : « لوددت لو أستطيع أن أقذف بالأديان جملة فى أعماق البحار »

وما كان لمصطفى ليضطغن على الاسلام لذاته ، ولو لم يحترمه دينا لاحترمه مقوما من مقومات القومية التركية ، تلك القومية التى كانت هدفه الوحيد بعد أن أغمد سيفه وعاد من الميدان

على أن مصطفى بشر يخطىء ويصيب ، وقد يكون جار ليعدل ، وانحرف عن الجادة ليصل إلى الطريق القويم . وإنك لن تخيط الثوب حتى تحدث الابر فيه ثقوبا . ورحم الله القائل « إنا لن نصل إلى الحق حتى نخوض الباطل خوضاً »

ليس الرجل العظيم جديراً بهذا اللقب حتى يكون عظيما فى كل شىء ، وقد برهن مصطفى على أنه رجل سلم كما أنه رجل حرب . ما كاد يخلص من قيود وطنه بالتحطيم ، حتى تناول داخليته بالتنظيم ، فأظهر فى ذلك ما لم يكن ينتظر من رجل تخرج فى الميدان ، لم يعتد إلا حمل السلاح وإطلاق النيران . انظر إليه يقوم « بتتريك » كل شىء ، ويتعصب لقوميته حتى إنه ليحظر التعليم بغير اللغة التركية ، ويقصى فى سبيل ذلك كثيراً من معاهد الجاليات الأجنبية . ثم انظر إليه لا يمنعه تعصبه الأعمى لقوميته أن يستعير من الغرب الحروف اللاتينية ، فيفرضها فرضا ، ويطوف حاملا سبورته مبشرا بها فى الأندية والمسارح . ثم انظر إليه يفرض القبعة على الرءوس ، ويقذف بالقبق والطربوش وغير هذين من الأغطية المختلفة الأشكال ، التى كانت تجعل من الأتراك شبه « كرنفال » . إن مصطفى القائد خبير بعلم النفس ، مدرك تمام الادراك الارتباط الذى بين النفوس ، وبين أغطية الرءوس ،

فمل مصطفى ذلك كله فى ثوان ، وإن قوماً لا يزالون إلى الآن ينتظرون حكم الفقهاء فى ترجمة القرآن ، وهم كلما هموا باستبدال لباس بلباس ، انتظروا حتى يحكموا الدليل والقياس

إن سر عظمة مصطفى هو فى أنه رجل عملى ، لا يعرف المناقشات البيزنطية . ما يحتاج إلى قرون ، ينفذه فى لحظة بقوة القانون . وإنه ليؤثر الاقدام على الخطأ على التردد فى الصواب ، بل إنه ليحيل الخطأ صواباً بشدة اقتناعه وسرعة اندفاعه . بذلك استطاع أن ينفذ برنامجاً واسعاً من الاصلاحات ، وأن يعلن الجمهورية ، وأن يلغى الألقاب ، وأن يقضى على نفوس كرادلة الاسلام ، وأن يحقق غير ذلك من الأغراض التى لم تحققها الثورة الفرنسية إلا بعد عشرات من السنين ، أروت فيها خشبة المقصلة بدماء الملايين .

وبعد ، فهل لنا أن نضيف مصطفى كمال إلى نابليون بونابرت وإلى محمد على باشا ثم نعتبر هؤلاء دليلا على أن رجال الميدان بما تعودوا من سرعة البت وصرامة الأحكام — أصلح لحكم الشعوب من رجال القانون الذين يتحرون المنطق فى الأحكام ، ويطيلون البحث فى فقه الألفاظ ومدلول الكلام ؟

وهل لنا أن نعتبر هؤلاء دليلا على أن الحكم الدكتاتورى العادل هو أصلح أنواع الحكم التى تساس بها الدول ؟ إننى لأميل إلى ذلك كل الميل . بيد أنهم يقولون : إن الدكتاتور يبنى نفسه على أنقاض غيره ، ويقوى شخصيته على حساب إضعاف شخصيات الآخرين . ولئن صح ذلك فاننى لأشفق على تركيا الفتاة ألا تجد خلفا لمصطفى ، أو تجد خلفا يشغل زاوية من زوايا كرسيه العريض ويترك سائره شاغرا

« كوم حماده » — محمود غنيم

اطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبى
وكتابه
الإسلام الصحيح
من مكتبة الوفد شارع الفلكى (بالاسكندرية)
ومن المكتبات العربية الشهيرة

من ذكريات لبنان

راهب الوادي

للأستاذ على الطنطاوى

كنت فى بيروت فملت صخبها وضوضاءها وأحسست أن قلبي جائع لا يشبعه إلا الجمال، ونفسي عطشى لا يرويها إلا الحب ، وتمنيت أن أعيش يوماً فى الجنة ... وما أقرب الجنة من ساكنى بيروت تلوح لهم من شرف السماء كما تلوح الفراديس لعينى العابد المتبتل ... وتبدو لهم بذراها المكللة أبداً بالثلج رمزاً للصفا والطهر ، وهاماتها المرفوعة المشمخرة صورة للعظمة والمجد ، وصخورها الهائلة التى تتلو على الدنيا سورة الخلود ، وسفوحها الحالية بأشجار الصنوبر والسرو التى تصف الحياة الباسمة ، والجمال الباقى ، وقراها الحالمة فى الضباب العطر ، وغاباتها السكرى بالنشيد الحلو ، وشعابها ومساربها التى يمرح فيها الحور العين ، والولدان المخلدون ، آمنين فى مثابة العشاق ، وحمى المحبين ، وأوديتها العميقة عمق السر فى نفس الصب الدله يحب أن يذيعه ثم يضنّ به فيختزنه فى صدره ، الرهيبة رهبة الأزلية عند أبناء هذا الوجود الفانى ... الساحرة سحر المجهول الذى يحبه الناس بمقدار ما يخافونه !

وكانت الدنيا تخطر فى حلل الربيع ، وكانت الطبيعة فى عرس، فخرجت مع فئة من تلاميذى نؤم دنيا الأحلام ، وجنة المستعجل، وذهبنا نصعد فى الجبل على غير ما طريق ، بل لقد تنكبنا الطرق عمداً ونأينا عن السبل المسلوكة ، والقرى العامرة ، لنرى الطبيعة العذراء ، ونبصر الجمال البكر ، لا الذى ازدحم عليه الواردون ، فلم نكن نبلغ الذروة بعد طول الجهد ، ونحسب أننا قد وصلنا حتى تظهر لنا من ورائها ذرى وظهور فنعود إلى التسلق طربين ، والطبيعةُ ، ويح الطبيعة ، تعرض علينا من فتونها ألواناً ، وتغرينا بالحب ما وسعها الاغراء ، فلم تلبث أن أيقظت فى نفوسنا بنات الهوى ، وشياطين الغرام ، فاذا نحن نفتش فى أثناء نفوسنا عن ذكرى حب قديم ، أو أمل بحب جديد ... وإذا نحن نحس بهذه